إلى جهة واحدة)

فهذه النظرية لم تكن أسعد حظًّا من رفيقاتها السابقة ، بل هى لا تختلف عن نظرية مدرسة مونبيليه من حيث توضيحها للحياة بالحياة نفسها

وفى ختام هذا البحث لا يمكننا إلا القول : الحياة هى قوة إلـهية كامنة يبثها الله تعالى فى الموضع الذى خصصه لها وهى كل جسم صالح للحياة . وقد تبين لنا أن العقل البشرى منذ القرون الأولى إلى العصر الحاضر لم يكتشف كنهها ، فهو إذن عاجز عن إدراك الحقيقة النهائية للحياة ، ولعل الله يكشف لبعض الأدمغة الواسعة عنها فيخلص طائفة كبيرة من عناء التفكير فيها ويردعهم عن الوقوع فى الزلات الجسيمة وارتكاب الأخطاء العظيمة

(انتهى بحث الحياة ويليه بحث الروح)

« دمشق » محمد حسن البقاعى

أقصوصة حكيمة من جولد سمث[1]

الجنـدى الاجذم[2]

للأستاذ درينى خشبة

يجهل نصف الناس كيف يعيش نصفهم الآخر ! !

تلك ملاحظة عامة شائعة ؛ بل ليس فيما يلاحظ الناس أكثر منها شيوعاً . . . وهى مع ذاك ملاحظة صادقة ؛ فهموم العظماء ما تلبث أن تفشو وتفشو ، وتذيع أنباؤها حتى تصبح ملء الأسماع ، وملء الأفواه ، وحتى تصبح تحبناقبة ، وحصر منها عنـبة ؛ وذلك بما يعطها به الرواة ، وما يضفون عليها من الزخرف الزائف ، والبهرج العقيم ... ويبتعث هذا فى نفوس المهمومين طائفاً من الزهو فيلتذون همومهم ، ما دامت تجعلهم أبطالاً فى تقدير الأغرار

هذا ، وليس نخراً أن نحتمل الرزء فى ثبات وفى جلد ليسا طبيعةً فينا ، ولا أصلاً فى جبلتنا ، بل هما صدًى للخيلاء التى يثيرها فينا إعجاب الناس بنا ، واستعظامهم لنا

أما العظيم حقاً ، فهو الذى ينزل بساحته الخطب فيصمد له ، ولا يحفل به ، فى حين لا خِلٌّ فيواسيه ، ولا صديق فيشجعه ... بل .. ولا بارقة من أمل فتُسرى عنه ... ذلك رجل ينبغى علينا احترامه ، ويجب أن نتخذه لنا قدوة ، مهما يكن ... من السوقة هو ... أو من علية الناس

ياما أتعس حظ الفقير ! !

إن الرجل الغنى إذا أصابته ضرّاء ، وقد لا تكون من الضرّاء فى شىء ، تناقل الناس ضرّاءه ، فهولوا بها ، وأفاضوا فيها ، بينما يُرزأ الفقير بأضعاف ذلك فلا يلتفت إليه أحد ، ولا يعتدّ به مخلوق ... وإن مصيبةً واحدةً من مصائبه فى سحابة يوم لترجح مصائب العصبة أولى الحول من السادة العظماء فى حياتهم جميعاً ...

إن من أصغر جنودنا وبحارتنا العاديين مَنْ إن ينزل به الخطب لا تتصور فدحه عقولنا ، فيصبر له فى عظمة وتسليم وإيمان ، دون أن يشكو أو يتململ ، أو يتسخط على قضاء الله ، ودون أن يُشهد الناس !... هذا ... وقد تكون أيامه كلهن نوازل يأخذ بعضها برقاب بعض

لشد ما كنت أضيق ذرعاً بأوفيد وشيشرون ورابوتين

(١) من أحسن الكتاب والشعراء الانجليز ، وأمتعهم وأغزرهم فكرة وأعمقهم فلسفة ، هو أوليفر جولد سمث ، وقد حال دون انتشار أدبه فى اللغات الأخرى قوة أسلوبه ، وصعوبة ترجمته إلى لسان آخر ... وقد حرصنا على أن تكون أقصوصته هذه صورة صادقة منه ، فلا يهولن القارئ هذه المقدمة الطويلة التى قدم بها لقصته ، فمقدماته كمقدمات شو ، أحسن من قصصه .

(٢) الأجذم : الذى بترت يده أو أصابعه

حينما كنت أقرأهم فأراهم يشكون ويبرمون ويتسخطون ، ويندبون حظهم العاثر ، وطالعهم النحس . . . ولماذا ؟ ؟ لأن أحدهم لم تسعده المقادير بزيارة هذا المكان أو ذاك ، مما وقر فى باله أنه كان حرياً لو قطف ثمار السعادة فيه .. وليس هذا الهم من الهموم الإسعادة صرفة إذا قيست بما يجرعه البائسون من غصص الحياة كل يوم ...

لقد كان أولئك يحيون فى بُلهنية وسعة ، يحف بهم حشمهم ، ويسجد تحت أقدامهم خدمهم ، لا يحملون هماً من هموم المادة ، ولا يبالون كلفة من كلف الحياة ... كل هذا بينما كان كثيرون من بنى جلدتهم يجوبون الآفاق فى ظمأ ومسغبة ، لا يكادون يجدون الكِنّ الذى يدرأ عنهم عاديات الجو وتقلباته ...

كل هذه الخواطر دارت بخَلدى حينما لقيت فجأة ، ومنذ أيام خلت ، رفيقاً بائساً كنت أعرفه إذ أنا صبى ؛ يطوف فى أزقة المدينة وهو يتكفف الناس ، وقد جعل بقُزل[1] برجليْن إحداهما من لحم وعظم ... والأخرى من خشب ... ومن فوق كاهله سترة بحّار بالية ، يتوكأ بها على عُكازة نابية

وهالنى أن أراه قد آل إلى هذا المآل ... فلقد كنت أعرفه أميناً دائباً شديد الدؤوب إذ كان يعمل فى الريف ... فبعد أن دست فى يده ما هو حسْبُه ، رغبت إليه فى أن يقص علىّ قصة حياته ، وطرفاً من أنباء مآسيه ... وأرسل صديق الجندى الأجذم ، وقد كان جندياً حقاً وإن بدا فى ثياب بحار ، أظافره تعيث فى جلدة رأسه ، ثم انكأ على عكازته ، فعرفت أنه يجمع أشتات الذكريات التى تتألف من أسرابها قصته ، والتى ساقها فى حديث طويل طلى هكذا :

« لا أستطيع أيها السيد أن أدّعى أن مصائبى قد فاقت مصائب سواى ، أو أننى لقيت من المحنة ما لم يلق غيرى ، إذ أننى ، فيما عدا هذه الساق المبتورة ، وتلك الأصابع المجذومة ، وما اضطررت إليه من المسألة والتكفف ، لا أجد والحمد لله ما أشتكى منه ! ! وإن هذا زميلى تِبْز الذى فقد ساقيه جميعاً ، وإحدى عينيه ، والذى أفقده كل ذلك عن السعى وراء رزقه ... فأين أنا مما آل إليه ؟ شكراً لله !

ولقد وُلدت في شُبْشِير ، ومات أبي — وكان من العمال — ولما أبلغ الخامسةَ بعد ، فأرسلت إلى ملجأ إحدى الكنائس ذوات الضياع ... ورفض القساوسة أن يبقوا علىّ لأنى لم أستطع أن أنتسب لديهم ، ولأننى لم أستطع أن أخبرهم أين وُلدت ؛ ومن لى بهذا وأبى — وقاك الله ! — كان رجلاً آفاقياً ، لا ينتهى من تطواف إلا إلى تطواف ! وقذفوا بي من أجل هذا إلى ضيعة كنيسة أخرى ، فأرسلتنى بدورها ، ولنفس الأسباب ، إلى ضيعة ثالثة ، فرابعة ، فخامسة ، وهكذا دواليك ، حتى حسبتنى أقضى الحياة فى هذا التشرد الطويل دون أن أستقر ، لولا أن تغلبت مروءة الانسانية آخر الأمر ، فخجلت إحدى الكنائس أن تطردنى من ضيعتها ، فبقيت ثمت ، وألحقت بكُتّابها لأتعلم الهجاء ، بيد أننى وا أسفاه لم أثبت به طويلا ، إذ آنس فىّ مُعلم المصنع الملحق بالكنيسة جسماً يافعاً وذراعاً مفتولة لا أيسر عليها من حمل الدق والمطرقة فاختارنى لمعاونته فى عمله ... وبقيت هناك خمس سنوات كانت أسعد فترة فى حياتى لسهولة العمل ، وطراوة العيش ، وإقبال الزمان ... ذلك أننى لم أكن أعمل كل يوم أكثر من عشر ساعات (!) ، ومع ذلك فقد كنت أعطى نصيباً وافراً من اللحم والشراب يتناسب مع مجهودى الضئيل ، ومع أننى كنت أشتهى لو قضيت حياتى كلها ثمة فانهم كانوا يحبسوننى داخل الكنيسة ، بحيث لم يسمحوا لى قط أن أعدو وصيد بابها ، خشية أن أفر إلى ملجأ آخر ... ولا أدري لماذا كانوا يظنون مثل هذا الظن ، والكنيسة كلها كانت حِلاً لى ، وحوشها[1] الكبير أمرح فيه حيث أشاء ...

« ثم نقلت بعد أن شببت إلى مزرعة مجاورة لأعمل فيها من مطلع الفجر إلى غسق الليل ، ثم أعود إلى الكنيسة لأنام ، وكنت أحمد الله على أن يسر لى أمر طعامي وشرابى ، وعلى أن حبب إلىّ عملى الذى كنت أقبل عليه فى رضى وقناعة ... ولما مات المعلم الذى لزمته طوال هذه المدة ، كان طبيعياً أن أهجر الضيعة لأشق طريقي فى الحياة بنفسى ، ولأكدح فى سبيل رزقى فرحت أزرع الأرض ، وأنتقل من قرية إلى أخرى ، وأشبع إذا لقيت ما أعمله فأوجر عليه ، وأجوع إذا لم ألق عملا حتى أوشك أن أقضى من الطَّوى[2]

(١) قزل من باب فرح وضرب مشى وتستعمل للأعرج فقط

(١) الحوش كلمة عراقية وهو شبه الحظيرة والمصريون يستعملونها بكثرة

(٢) الطوى بالفتح الجوع

« ثم حدث أن كنت ماراً ذات يوم في طريق وسط مزرعة لحاكم الاقليم فلمحت أرنباً برياً يرتع ويلعب ويقضم العشب ، فوسوس الشيطان فى صدرى أن أحذفه بعصاى ... ففعلت ... وقصمت ظهره ، ثم هرولت إليه لحملته وأنا فرح بهذا الصيد ، وما كدت أمضى حتى لقيني الحاكم صاحب المزرعة نفسه وانطلق يسبني ويلعنني ، ويرميني بكل موبقة ، ويشتمني فيقول ويقول ... ثم أمر بالقبض على ، وإحضارى أمامه لأثبت شخصيتي وليرى إن كنت متشرداً أو جوّاب آفاق ... وقد وقفت أقبل الأرض بين قدميه وأترضاه وأستعطفه ، ثم جعلت أسرد له ما أعرف من أرومتى ونشأتى وآبائى ، حتى لم أبق شاردة ولا واردة إلا قصصتها . ولكنه وا أسفاه تجهم وقال : إنى لم أستطع أن أثبت له شخصيتى .. ثم حوكمت بعد هذا - أعاذك الله - بتهمتين عجيبتين ، أما إحداها لخرق قوانين الدولة بما قصمت ظهر الأرنب ، وأما الأخرى ... فلأنى فقير معدم ... لا أمامى ... ولا ورائى ! وأرسلونى إلى نيوجيت بلندن لأنفى من أرض الوطن فى زمرة المجرمين والمتبطلين

« وبالرغم مما يزعمه الناس عن الحياة في السجن ، فلقد وجدته لطيفاً ظريفاً كما وجدت أى مكان غيره فى العالم .. وماذا غير أن يأكل الانسان ويشرب ملء بطنه ، وينام ملء عينيه ، دون أن يعمل عملاً ما ... ! لعمرى لقد كنت أوثر أن أبقى هناك إلى الأبد ، لو لم يأخذونى بعد خمسة أشهر إلى الميناء ، حيث شحنت أنا ومئتان غيرى من ذوى البطالة فى فلك كبيرة ، ما لبثت أن همت بنا فى موج كالجبال إلى مزارع المستعمرات وراء البحار وقد تركونا لكثرتنا الهائلة ننام فى ممر ضيق بين القمرات (١) ، فاختنق من اختنق ، وعاش من عاش ، وكانوا يقذفون بمن مات فى اليم ليدفن فى بطون السمك ، والله لقد دفن فيها نصفنا أو يزيد ... أما من نجا ، فقد اعتل جسمه وخارت قواه ، وهزل هزالاً شديداً

« وبلغنا الشاطىء ، وباعونا كالرقيق للمزارعين ، وظللت أفلح الأرض مع العبيد ، ولو قد تملت الهجاء لنجوت من حمارة الشمس الاستوائية ، ولقمت بعمل أسهل ... ولا أطيل عليك ، فلقد لبثت في عملي المتصل سبع سنين سرّحنا بعدها وهفا القلب إلى الوطن ... واشتاقت النفس إلى انجلترا الأم التى أهواها من كل قلبى ، وأخلص لها الحب من أعماق ، فلبثت أياماً أفكر فى الأوبة وأعد لها عدّتها ، وحرصت على ألا أقع فيما وقعت فيه من قبل من تهمة البطالة والتشرد ، فلم أذهب قط بعيداً عن حدود المدينة ، بل رحت أذرعها مشرقاً ومغرباً وأنتظر يوم الرحيل ... واستمتنت بأداء بعض الأعمال التافهة على التوقى من أعين الشرطة

وكنت أشعر بسعادة عميقة أثناء هذه الفترة التى تسبق عودة النازح إلى أرض الوطن ... ولكن ... حدث ما لم يكن قط فى حسبانى ، فبينما كنت عائداً أدراجى من بعض عملى إلى منزلى ، إذا رجلان قويان يلكمانني لكماً كاد يحطم رأسى ، وإذا بى أهوى إلى الأرض فى غير وعي ... حتى إذا أفقت إذا هما يأمرانني أن أنهض ثم إذا هما ينطلقان بى إلى الحاكم الذى يطلب إلى ما يثبت شخصيتى ! حتى إذا عجزت هذه المرة كما عجزت فى الأولى ، تُرك لى أن أختار إحدى اثنتين لا ثالثة لهما ، فإما أن أنطلق من فورى فأعمل بحاراً على ظهر مركب يوشك أن يبحر أو أن أنضوى إلى صفوف الجند فأحارب أعداء المملكة ... ولم يكن بد من أن أختار الجندية التى شعرت فيها بكرامتى خصوصاً بعد أن حاربت فى وقعتين كبيرتين هما معركة الفال الخالدة ، ومعركة فونتنوى التى لن أنساها ما حييت ... ولم يمسسنى ضر فى أى منهما ، اللهم إلا جرح هنا ... فى هذا المكان الرحب من صدرى ، استطاع طبيب فرقتنا الحاذق النطاسى أن يشفيه سريعاً

« وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، ودخلنا فى السلم كافة ، سُرّح كثير من الجنود فكنت منهم ... ولم أستطع أن أضطلع بالأعمال الشاقة التى كنت أحتملها من قبل ، لأن جرحى كان ينغَل(١) أحياناً فيؤلمنى ويقعدنى عن أى عمل ... ثم انضممت إلى جيش شركة الهند الشرقية فحاربت الفرنسيين في ست معارك دامية ، أبليت فيهن جميعاً بلاء حسناً ، ولو كنت قد أسعدنى الحظ فثقفت بالكتابة والقراءة لارتقيت إلى مرتبة (أونباشى) ... وشاء الجد العاثر أن يلم بى مرض يقعدنى عن الحياة العسكرية القاحمة ، فيهيج فى قلبى حنينه القديم ، وفى نفسى توقها إلى الوطن ؛ فأنتوى الأوبة من جديد ، وإن فى جيبي لأربعين جنيهاً

(١) القمرة حجرة فى السفينة لم نقف عليها فى المصادر العربية ولعلها رومية

(١) نغل : الجرح من باب فرح فسد

حراً رنانة ... وكان ذلك فى إبان الحرب الحاضرة ؛ وكم كنت أحلم أحلاماً لذيذة سعيدة إذ أنا على ظهر الفلك ، وأفكر فى كيف أنفق هـذا القدر غير القليل من الذهب الوهاج ... وكانت الحكومة فى حاجة ماسة إلى الرجال ، فلما أهابت بأبناء الوطن انضويت إلى الصفوف وأنا فى عرض البحر ، فعملت بحاراً فى إحدى وحدات الأسطول ، من غير أن تكون لى أية دراية بأعمال السفانة الحربية ولا غير الحربية ... وطالما اتهمنى الربان بأنى أعرف من الأعمال البحرية ما أنا مخفيه ، إيثاراً للعمل الحربى في البر ، فكان يضربنى ضرباً مبرحاً لم يكن يخفف من أوجاعه فى نفسى إلا الأربعون جنيهاً التى ادخرتها واكتنزتها فى جيبى ، والتى كنزتها بما ضممت إليها مما كنت أقتصد بعد

وقد ضلت سفينتنا مرة ، فأسرتنا وحدة بحرية فرنسية ... وبهذا — وا أسفاه — خسرت نقودى كلها ... ... ونزلنا إلى البر فى ميناء برست ، ولم يحتمل رفاق الملاحون زهمة السجن وهواءه الخانق ، فمات أكثرهم ... أما أنا فقد بقيت فيمن بقى ؛ ويبدو أن ما تعودته من الحياة فى أشباه هذا السجن ، قد جعلنى أحتمل ما لم يحتمل زملائى

وبينما كنت نائماً على أرض السجن ، وأنا ملتفع بغطائى الدافئ ، إذا بى أستيقظ على صوت الربان الذى جعل يلكزنى لأصحو ... وقال لى فى صوت خافت ، وهو يحمل مصباحاً أخفت من ضوئه : « چاك ! چاك ! هل لك فى أن تحطم رأس (الديدبان) لنلوذ بالفرار يا صاحبى ؟ ! » ولم يكن أحب إلىّ من أن أفعل . فوافقت على هذه المجازفة التى رغبها إلى كراهيتى للفرنسيين ، الذين أعدّهم أمة من العبيـد ... والذين لا يلبسون فى أرجلهم إلا (القباقيب !)

ولم يكن معنا سلاح ما... بيد أننا كنا على ثقة دائماً من أن إنجليزيا واحداً يسعه أن ينتصر على عشرة من الفرنسيين . . . وهكذا انطلقنا إلى حيث انكمش الحارسان فى ركن بعينه من البرد ، فانقضضنا عليهما ، وانتزعنا منهما سلاحيهما ، ثم حطمنا رأسيهما ، ولذنا بالفرار إلى الشاطئ ... ولحق بنا تسعة ممن بقى من أسرانا ، فركبنا زورقاً كبيراً ، وأبحرنا من فورنا

« ولبثنا نصارع الموج ثلاثة أيام سوياً ، حتى أضرّ بنا الجوع ، وأوشك أن يهلكنا الظمأ . . . ثم اقتربنا من مركب كبير فحسبنا أن يد العناية قد أرسلته إلينا لتنشلنا مما نحن فيه .. فإذا هو مركب من مراكب (قراصين) البحر استطاع رجاله أسرنا . . . وكم كان فرحهم بنا عظيما ، لأننا أيد عاملة تنفعهم فيما هم بسبيله من أعمال القرصنة .. وقد رضينا نحن بالعمل معهم ، إذ كان لا بد مما ليس منه بد .. ولم يكن حظنا بساماً هذه المرة ، فلقد شاء سوء الطالع أن نشتبك فى قتال بيننا وبين ال (بومبادور) القوية التى يملك قراصينها أربعين مدفعاً صالحة كلها للعمل ، بينما لم نكن نملك أكثر من عشرين وثلاثة مدافع . . . ومع ذلك فقد قاومنا ما وسعنا أن نفعل ، بل بدا لنا أننا نرى النصر قاب قوسين أو أدنى ، فى نفس اللحظة التى تمت هزيمتنا فيها ... وعلة ذلك كثرة من قتل من رجالنا ، وقلة الأيدى التى لم يكن يسعها أن تُعمل المدافع كلها لنحوز النصر ...

« وهكذا شاءت المقادير أن أكون مرة أخرى فى قبضة الفرنسيين ... ولشد ما فزعنا أن يرسى بنا ثانيةً فى برست ، إذن ما كان جزاؤنا إلا القتل هناك... لكننا رسونا في ميناء أخرى ، فنجونا ... وقد نسيت أن أذكر لك أننى فقدت إحدى ساقىّ ، وأربعاً من أصابعى ، وأصبت بأربعة جروح كبيرة فى هذا القتال الهائل ... أواه يا سيدى ؟ ! أواه لو أسعدنى الحظ فكنت قد فقدت هذه الساق وتلك الأصابع فوق بارجة من بوارج الوطن ... ؟ ! إذن لكفلتنى الحكومة ، وحبست على معاشاً كاملاً طوال الحياة ... ولكن ... ! ما حيلتى ؟ إن من الناس من يولد وفى فمه ملعقة من فضة ، وإن منهم من يولد وفى فمه مغرفة من خشب ... ! ! على أنه مهما يكن من أمرى ، فإنى أحمد الله القدير الذى حبانى عافية وصحة ، ووهبنى النعيم والحرية ورزقنى محبة بلادى ... بلادى ذات المجد ... إنجلترا ... إنجلترا الأم ... عاشت انجلترا ! »

* * *

ثم مضى عنى ، وغادرنى فى حيرة من رضاه بما هو فيه ، وتسليمه الجميل لما صنع الله ! ! حقاً ... إن التمرس بالبؤس يعلمنا كيف نستهين به ، أضعاف ما تعلمنا ذلك الفلسفة ! !

دريني خشبة